١ ـ بعض مواطن الخفاء

في التاريخ الاسلامي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان الخفاء وما يزال مثار الفضول والروع ، ومصدر الأساطير الغريبة الشائقة ؛ وفي عصور ومواطن كثيرة كان الخفاء عماد دعوات وثورات سياسية واجتماعية خطيرة ، وكان مبعث دول قوية قامت في ظروف غامضة ، واستندت في قيامها إلى دعوات ومبادئ خفية ؛ وكان هذا الخفاء نفسه مصدر قوتها وحياتها . وقد شغلت هذه الفورات والدعوات الخفية فراغاً كبيراً في التاريخ الاسلامي ، وخصتها الرواية الاسلامية بكثير من التفصيل والجدل ؛ وما زلنا نلمس آثارها حتى اليوم في بعض الطوائف والمجتمعات التي تلوذ في عقائدها وتقاليدها بكثير من الغموض والخفاء

وقد كانت قصة المهدي المنتظر بلا ريب من أشد مواطن الخفاء في التاريخ الاسلامي وكانت أخصبها مورداً للأساطير ، وأحفلها بالدعوات والفورات الخفية ؛ ويكفي أن هذه الأسطورة الغريبة كانت مبعثاً لطائفة من الدول القوية التي كان لها أكبر الأثر في سير التاريخ الاسلامي كما أنها كانت مصدراً لطائفة من الدعوات والمذاهب الدينية والاجتماعية التي شغلت مكاناً كبيراً في الكلام الاسلامي . كانت أسطورة المهدي عماد الدولة الفاطمية التي قامت في قفار المغرب الأوسط حول تلك الشخصية الخفية ـ شخصية المهدي المبعوث ـ وحول رسالتها وإمامتها ؛ ثم افتتحت مصر والشام وبسطت سيادتها على قلب العالم الاسلامي فيما بين آسيا الصغرى والحرمين ؛ وكانت عماد دولة الموحدين التي قامت في قفار المغرب الأقصى ، وسادت بسائط المغرب والأندلس أكثر من قرن ؛ وكانت عماد طائفة كبيرة من الثورات والفتن الدينية التي وقعت في مختلف العصور في أنحاء العالم الاسلامي . وكان الخفاء صفة ملازمة لأسطورة المهدي قبل البعث وبعده ، يسبغ على القائم ودولته وخلفائه نوعاً من القداسة الروحية أو السمو فوق بني الانسان

ومنذ عصر الاسلام الأول تتبوأ هذه الأسطورة مكانها في الكلام الاسلامي ، وتقوم على عناصر الغموض والخفاء ، فنرى من غلاة الشيعة من يقول إن علياً بن أبي طالب لم يمت ، ولكنه حي غائب عن أعين الناس ، مستقر في السحاب ، صوته الرعد والبرق في سوطه ؛ ونرى منهم من يقول مثل ذلك القول في ولده محمد بن الحنفية ، وأنه مستقر في جبل رضوى من أعمال الحجاز [1] ؛ ثم نرى الأسطورة تتخذ بعد ذلك صبغتها السياسية وتدعم بالأسانيد الكلامية والشروح التاريخية ، ولكن مع اقترانها بصفة الخفاء دائماً . وخلاصة الأسطورة « أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من آل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل ، ويتبعه المسلمون ، ويمهد مجد الاسلام ودولته ويسمى بالمهدي » . أما هذا الامام الخفي فمن هو ؟ هو من ولد علي بن أبي طالب ؛ ولكن يختلف الشيعة في مساق الامامة أصولاً وفروعاً ؛ وليس من موضوعنا أن نتعرض لهذا الجدل [2] ؛ ولكننا نذكر فقط أن أشهر فرق الشيعة الامامية ، وهم الاثنا عشرية ، يقولون إن الثاني عشر من أئمتهم ، وهو محمد بن الحسن العسكري ، هو المهدي ، وإنه لم يمت ؛ ولكنه اختفى وغاب عن الأنظار ، ولا يزال مختفيا إلى آخر الزمان ، ثم يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ؛ وزاد بعض الدعاة على ذلك فحددوا لظهور المهدي تواريخ معينة ، وكلهم يستمر لتأييد مزاعمه

(١) ابن خلدون — المقدمة ص ١٦٥

(٢) راجع في هذا الموضوع ابن خلدون ـ المقدمة ص ٢٦٠ وما بعدها

كالذي حكاه الجاحظ قال : سمعت رجلا يقول لآخر : ضربنا الساعة زنديقاً . قال الآخر : وأي شيء الزنديقاً ؟ قال الذي يقطع الزيقاً . قال : وكيف علمتَ أنه يقطع الزيقاً ؟

قال رأيته يأكل التين بالخل ... ...

(التكملة في العدد الآتي)

(طنطا) محمد عبد الغني حسن

إلى « الخضري » : أنا من زمن لا أقرأ شيئاً لهذا الزنديق الذي سميته في كتابك ؛ وقد عرفته رجلا لو أيقن أن حبل المشنقة يرفعه مترين فقط في جو العبقرية لمد له عنقه ... فكل ما تتبرؤه له من الطعن في العربية والعرب والاسلام ، فانما نبته فيه أن يتناوله الكتاب ولو بالصفع إذا رن الصفع في العالم العربي ..... الرافعي

وراء الرموز والاشارات الغامضة ، مما يسبغ على دعوتهم دائماً لون السرية والخفاء

وكما كان الخفاء مبعث القداسة والخشوع قبل تحقيق الظفر السياسى ، فكذلك كان الخفاء بعد تحقيق هـذا الظفر مصدر القوة والنفوذ للدولة أو الأسرة التى تتشح بثوب الدعوة أو الامامة أو الرسالة ، ولنا أسطع مثل على ذلك فى الدولتين ، الفاطمية والموحدية . بيد أن هنالك أمثلة محليـة كثيرة للاعتصام بهذا الخفاء المروع ، وماكان يترتب على هذا الاعتصام من النتائج المادية والمعنوية المدهشة ؛ ويكفى أن تـكون هذه الغمر الخفية مبعثا لأكثر من دعوة بالنبوة ، بل مبعثاً لدعوة الألوهية ذاتها ، وأن تقوم عليها عقائد ومذاهب كان لها أثر قوى فى سير العالم الاسلامى ومازالت تمثل فى عصرنا

— ٢ —

ويقدم لنا التاريخ الاسلامى أمثلة عمليـة مدهشة قوامها الخفاء المادى والروحى ؛ ومن الصعب أن نستوعب هذه الأمثلة أو أن نحصيها جميعا فى هذا المقام المحدود ، ولـكننا نقدم منها بعض أمثلة شهيرة

فى أواخر القرن الثالث من الهجرة ظهرت دعوة القرامطة مستظلة بالدعوة الشيعية والاسماعيلية وقواها التبشير بالمهدى المنتظر ؛ وظهر داعية القرامطة الأول الفرج بن عثمان القاشانى الملقب بذكرويه فى جنوب العراق ، ولبث حيناً يبث دعوته سراً وخفية ؛ وتلاه تلميذه وصاحبه « قرمط » مؤسس المذهب الحقيقى يبث الدعوة جهرا ، ويدعو إلى امام من آل البيت هو المهدى الذى يظهر فيملأ الارض عـدلا ، فلما ذاع أمره قبض عليـــه عامل الـكوفة وألقاه إلى ظلام السجن ، ولـكنه استطاع أن يفر من سجنه فى ظلام الليل بمساعدة جارية للحاكم ؛ وكان هذا الداعية الجرىء يدرك سر الخفاء وفعله فى نفوس الكافة فاختفى على أثر فراره حيناً ، وألقى فى روع أنصاره أنه رفع الى السماء فازدادوا به فتنة ؛ ثم ظهر بعد ذلك وكأنه قد بعث ، ثم فر الى الشام ولم يوقف له على خبر بعد ذلك ، فكان هذا الاختفاء فى ذاته عاملا فى ذيوع الدعوة القرمطية واضطرامها

ورأى الفرج بن عثمان أو ذكرويه أن يخوض أيضـا غمر الخفاء ، ليحدث مثل الأثر الذى أحدثه اختفاء قرمط ، فنزح الى القفر وتوارى عن الأنظار فى مكان ناء ، فى منار أنشأه لذلك ، واستخلف أولاده للدعوة ، ولبث أعواماً طويلة يعمل ويدبر الخطط من وراء ستار ، ويوجه أكابر أنصاره وخاصته حتى اشتدت دعوة القرامطة وغدت خطراً حقيقياً على الجزيرة ؛ ثم خرج ذكرويه من كهفه ، وظهر بين أنصاره ، وسار غازياً إلى الشام ، والتقى هنـاك فى ظاهر حمص بجند المكتفى ، فهزم القرامطة بعد قتال رائع ، وجرح ذكرويه وأسر ، وحمـل إلى بغداد حيث توفى من جراحه بعد أيام ، ومثل بجثته أشنع تمثيل (سنة ٢٩٤هـ) بيد أن فورة القرامطة كانت قد اجتاحت يومئذ أنحاء البحرين ، واستقرت هنالك قوية منذرة ، واستمرت خطراً داهما على الشـام ومصر وأطراف الجزيرة حتى أواخر القرن الرابع [1]

— ٣ —

على أنا نجد أروع مثل للخفاء فى الدولة الفاطمية ، فى قيامها ، وفى وسائلها ، وفى خلفائها ؛ فقـد نشأت هذه الدولة القوية فى قفار المغرب على يد دعاتها السريين وشيعتهم من القبائل البربرية المتعصبة الساذجة ، وكان أول خلفائها عبيد الله المهدى شخصية خفية غامضة لم يستطع التاريخ أن يقف على حقيقتها أو يتقصى نسبتها ؛ واستمر هذا الخفاء يغمر شخصية الخلفاء الفاطميين ، وهذا الريب يغمر أصلهم ونسبتهم ، حتى أننا نجد أشراف مصر يطلبون الى المعز لدين الله حين مقدمه إلى مصر أن يوقفهم على نسبه ، فيجمعهم فى مجلس عام ويسل نصف سيفه ويقول لهم هذا نسبى ، ثم ينثر عليهم ذهباً ويقول لهم هـذا حسبى [2] ، ونجد خصوم الفاطميين ولا سيما بنى العباس يتخذون هذا الريب فى نسبهم متاواً للطعن فى امامتهم وفى ذممهم وعقائدهم مما لا يتسع المقام لبسطه ؛ بيد أن هناك حقيقة تلفت النظر ، هى أن الخلفاء الفاطميين ، ولاسيما الأوائل منهم كانوا يزعمون علم الغيب ومعرفة الخفاء [3] ، ومما يروى فى ذلك أن العزيز بالله الفاطمى صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة مكتوب فيها

(١) راجع فى دعوة القرامطة وغزواتها — ابن الأثير ج٧ ص١٤٧ و١٤٨ و١٦٨ و١٦٩ و١٧٢ و١٧٤ وابن خلدون ج ٤ ص ٨٥ — ٩٠ ؛ واتعاظ الحنفاء للمقريزى ص ١٣٠ وما بعدها ؛ وراجع كتابى تاريخ الجمعيات السرية ص ٣٣ — ٣٨

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٦

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠٠

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقه
إن كنت قد أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقه

وذلك إشارة إلى دعواهم علم الغيب ؛ وقد اتخذ تعلق الفاطميين بالخفاء واستظلالهم برموزه صورا واضحة لها أثرها القوى فى بناء الدولة الفاطمية وفى خططها ووسائلها ؛ بل كان هذا التعلق بالخفاء سياسة مقررة للخلافة الفاطمية ؛ فنراها منذ استقرت بمصر تنظم مجالس الحكمة الشهيرة فى القصر وفى الأزهر وتعنى بأن تكون هذه المجالس مبعثاً لتعاليمها المذهبية ؛ ثم نرى هذه المجالس يتسع نطاقها شيئاً فشيئاً وتغدو ، جزءاً من نظم الدولة الروحية والاجتماعية ، ونراها تعقد للنساء والكافة ، وينصب للأشراف عليها رجل من أكبر موظفى الدولة هو قاضى القضاة ، وينعت فى هذا المنصب « بداعى الدعاة » . وفى عهد الحاكم بأمر الله تتخذ الخطوة الأخيرة والحاسمة فى تنظيم مجالس الحكمة ، وتنظيم الدعوة السرية الفاطمية بصورة رسمية وتنشأ دار الحكمة الشهيرة ، لتستأثر بتنظيم الدعوة وبثها على يد نخبة من الدعاة والنقباء (سنة ٣٩٥ هـ)[1] ؛ وقد اتخذت دار الحكمة منذ قيامها صبغة مذهبية واضحة قوامها بث الروح والمبادىء الدينية الفاطمية ، وكانت هذه مهمتها الظاهرة ؛ بيد أنها كانت تعمل فى الظلام لغاية أخرى يضمرها الخفاء ، هى بث الدعوة السرية الفاطمية . ولا يتسع المقام للافاضة فى تفاصيل هذه الدعوة الغريبة ورسومها ، ولكنا نقول فقط أنها كانت من أغرب الدعوات السرية للمذهبية ؛ وكانت موزعة على مراتب تسع يتدرج فيها الطلبة على يد الدعاة ، ويدفعون تباعا الى حظيرة التعاليم الفلسفية والالحادية ؛ ويبدأ الطالب فى جو من الايمان الضيق ، ولكنه لا يصل المرتبة السادسة أو السابعة حتى يكون قد انحدر إلى غمر الانكار المطبق ؛ ويبدو مما نقل الينا من تفاصيل هذه الدعوة الغريبة ومن موضوعات مراتبها ، أن الغاية الأخيرة التى كانت تعمل لها الدعوة السرية الفاطمية هى هدم كل اعتقاد وكل عقيدة دينية ، والانتقال بالطلبة والصحب الى حظيرة الالحاد المطبق والترفع عن العقائد الروحية العامة التى تؤكد الدعوة أنها لم توضع إلا للكافة ، ولا يلزم بها ذوو الأفهام الرفيعة

(١) راجع فى دار الحكمة ونظمها ومراتبها : المقريزى (مصر) ج ٤ ص ٧١ و ٧٢ وج ٢ ص ٢٢٦ وما بعدها وفيها تفاصيل الدعوة ومراتبها باسهاب

وقد استمرت هذه الجامعة الغريبة ، أعنى دار الحكمة ، عصراً تبث العقائد والمبادىء الفاطمية ، الخفية والظاهرة ، وكانت جهودها السرية أخطر وأشد أثراً فى توجيه الحركة الروحية فى مصر ؛ بيد أنها لم توفق إلى تحقيق الغاية التى عملت لها ، ولم تستطع أن تطبع المجتمع المصرى بطابع عميق من الدعوة التى كانت مبعثها ومستقرها ، وكانت جهودها بالعكس عاملا فى بث أسباب السخط على تلك السياسة التى رسمت للاستئثار بتوجيه العقائد وبث الانكار والالحاد ؛ واضطرت الخلافة الفاطمية غير بعيد أن تعدل عن هذا الاغراق فى بث العقائد المذهبية ، فتضاءلت أهمية دار الحكمة ، ثم أغلقت بعد ذلك ؛ بيد أن هذه الدعوة السرية ذاتها تمخضت كما سنرى عن نتائج مدهشة سريعة الأثر

(للبحث بقية) محمد عبد الله عنان

وحى القلم

مقالات الأستاذ الرافعى

مائة مقالة فى جزأين

ألح القراء على الأستاذ « مصطفى صادق الرافعى » فى جمع مقالاته ، فهيأ للطبع مائة مقالة تقع فى جزأين كبيرين ، وقد فتح باب الاشتراك إلى آخر شهر ديسمبر من هذه السنة ، وجعل قيمة الاشتراك فى الجزءين عشرين قرشاً صاغاً غير أجرة البريد وهى ثلاثة قروش للداخل القطر المصرى ، وخمسة عشر قرشاً للأقطار الأخرى كى يرسل الكتاب مسجلاً

وسيكون الثمن بعد الطبع أربعين قرشاً صاغاً ، ولا يطبع فوق عدد المشتركين إلا قليل ، وترسل قيمة الاشتراك باسم الأستاذ الرافعى فى طنطا . والمقيمون فى القاهرة يشتركون من إدارة « مجلة الرسالة »